مجـــله علـــمـی پــــوهنتون ســـــلام

https://salam.edu.af/magazine/14

أهمية القيم للحضارة تأسيسا واستمرارا

دكتور نبيل فولی محمد منجی[1]

1- عضـو كـادر علمـی دیپارتمنـت عقیـده و فلسـفه پـوهنځی اصول دین پوهنتون اسلام آباد - پاکستان

:

:

چکیده

أهمية القيم الحضارية تأسيسً ا واستمرارً ا من البحوث المهمة، أوضح الكاتب في بداية البحث مفهوم القيم، ومفهوم الحضارة، وأن هناك فرق ا بين القيم المطلقة والقيم الحضارية؛ لأن القيم المطلقة مقاييس الخير والشر، والصحيح والخطأ، والجمال والقبح، وأما القيم الحضارية فكما أنها مقاييس الخير والشر، والحسن والقبح، والصحيح والخطأ فهي تعتبر كذلك البواعث على نشأة الحضارة كما أنهـا تشـكل الأسـس العقليـة والنفسية لها، وأن منجزات الحضارة كلها لتعتبر ترجمة عملية لتلك القيم، ثم تناول خصائص هذه القـيم، فإنها عامة وكلية، وأنها مقاييس لها، إنها إنسانية، وهي وإن كانت متفاوتة في الأهمية في ذاتها إلا أنها متكاملة فيما بينها، وأن القيم الحضارية حجر الأساس للحضارات، ولايمكن نشأة الحضارة من غير القـيم، وتظهر هـذه الأهمية من الحقائق التالية :إن القيم أسبق زم نًا على الحضارة، وأن القـيم تبقـى بعـد اختفـاء الحضـارات، وأن الحضارات لاتنتفي بانتفاء أي عنصر من عناصرها لكنها تنتفي بانتفاء قيمهـا، وأن هـذه القـيم مـؤثرة في جميـع مناشط الحضارة ومنجزاتها.

معلومات مقاله

تاریخ نشر: 1391/12/05

شماره مقاله در ژورنال: 01

تعداد صفحات: 13

شماره نوبتی مجله: 3 و 4

کلید واژه ها

الحضارة، القيمة، القيم المطلقة، القيم الحضارة، تأسيس

معلومات مجله:

مجله علمی پوهنتون سلام، نشرات خویش را از سال 1390 هـ.ش آغاز نموده و دست آورد های زیادی در این زمینه دارد، در ادامه سلسله فعالیت های خویش به تاریخ 1401/03/22 اعتبار نامه خویش را به عنوان یکی از معتبرترین مجله از وزارت محترم تحصیلات عالی کشور به دست آورد،

آدرس: افغانستان، کابل، ناحیه چهارم، کلوله پشته، چهار راهی قلعه بست (گل سرخ)، پوهنتون سلام.

آدرس ارتباطی؛ ویب‌سایت: https://salam.صلی الله علیه وسلمdu.af/magazinصلی الله علیه وسلم ، **ایمیل:** salamuk@salam.صلی الله علیه وسلمdu.af ، **شماره های**

مقدمه

"قيم الحضارة" من الموضوعات التي تحتاج في عالمنا الإسلامي مزيدا من اهتمام المفكرين والباحثين، تقليبًا للنظر فيها، وتبادلاً للآراء حولها؛ خاصة مـن وجهـات النظـر العامة التي لا تخص حضارة دون أخرى؛ حتى تتيسر المقارنة بين عطاءات المجتمعات البشرية المتجاورة في المكان والزمان، وكذا المتباينة فيهما، أو في أحـدهما – وفقًـا لمعايير محايدة؛ اكتشافًا لمكامن القوة الحقيقية التي ترافق حركة المجتمع الإنساني، وكذا مكامنها الزائفة.

وإذا كان التفاوت بين الحضارات الإنسانية واضحًا في جوانب كثيرة، فإن هناك جوامع كبرى، وقوانين كلية، ونواميس عامة يخضـع لهـا الحـراك البشرى عمومًـا في سـعيه نحو التأسيس والبناء والإنجاز، ويمثل بناء هذه الحضارات؛ خاصة الباذخةَ القوةِ، المبهرةَ الأضواء منهـا، أبـرز أشـكال الحـراك الإنسـاني فـوق الأرض وأعظمَهـا؛ لأنـه يتجـاوز

طلب حاجات الغريزة ومطالب الجسد في صورتها الأوَّلية، إلى ألوان من الإنجاز تخاطب وتعبر عن أرقى ما في الإنسان؛ روحِه وذوقِه وعواطفه وعقلِه، كما نلحظ في إنجاز العلوم والفنون والفكر.

وإذا كان الدين لا يحصل على اعتبار عند أكثر البشر – بمختلف تصوراتهم - إلا إذا كان تنزيلا إلهيا، أو فيضًا من نبع مقدس عندهم، فإن حياة المجتمع الإنساني لا تكون ذات قيمة ممتازة إلا بنصب هذه السوق الكبيرة المسماة بالحضارة فوق مساحة من الحياة لا تُقاس بالباع والذراع، ولكن بترتيل العلم، وإنشاد الشعر، وبناء آيات الفن؛ تُقاس بدور العبادة، والحدائق، والأسواق، والمصانع، والمشافي، والمدارس، والمكتبات... إلخ.

وإذا كان الإنسان أيضًا يُحاسَب في الآخرة على عمله وحده، فلا يتحمل أحد ذنب غيره، فإن المجتمع المتقاعس عن الارتقاء بحياته يكون حسابه أمام السنن الإلهية في هذه الحياة أولا، قبل أن يحاسب الله الناس على ما قدموا واحدًا واحدًا في الدار الآخرة.

وقد حاولتُ في هذا البحث الموجز أن أسهم في هذا المعترك الواسع، بتناول واحدة من جوامع المسائل ذات الصلة بدراسة الحضارة الإنسانية، وهي أهمية القيم الحضارية التي تمثل أسسا صُلبة للحضارة، ومنطلقاتٍ لازمةً لا غنى لها عنها؛ مهما تكن هذه الحضارة.

وقد قسمت بحثي هذا إلى هذا التمهيد وثلاثة مباحث كما يلي:

الأول: "القيم الحضارية"... تحرير المصطلح.

الثاني: خصائص القيم الحضارية.

المبحث الثالث: موقع القيم في البنيان الحضاري.

وأساس نظرتي في هذه الدراسة تقوم على التمييز بين القيم مطلقا وبين القيم مقيدة بالإضافة إلى هذا المجال أو ذاك؛ كالقيم الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ثم الحضارية؛ أعني أن قيم الحق والجمال والخير تمثل أعم نظرة للقيم؛ حتى إننا نقصدها حين نستعمل اصطلاح "القيم" بلا قيد، وأما حين نضيفها فنقول "قيم المجتمع" أو "قيم الحضارة"، أو نصفها فنقول "القيم السياسية" أو "القيم الاقتصادية" مثلا، فنحن حينئذ نكون قد انتقلنا إلى مجال خاص لدراسة القيم، يختلف عن الدرس العام للقيم.

كما أميز في هذه الدراسة، من جهة أخرى، بين القيم التي تتعلق بمجال خاص من مجالات النشاط الإنساني؛ كقيم السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، وبين قيم الحضارة، حيث تبدو الحضارة مظلة واسعة تضم شتى ألوان النشاط الإنساني في صورتها المتفوقة، إلا أن لها قيما خاصة بها تبدو أشد تعميما وشمولا من قيم أي مجال منها بعينه.

ومن هنا، فلن تتضمن هذه الدراسة حديثا عن قيم اقتصادية أو اجتماعية أو تعليمية أو سياسية، وأرى أن الأولى بالتركيز عليه هنا هو القيم الأعم التي تتحكم في هذه المجالات نفسها وفي غيرها من مجالات النشاط الإنساني.

المبحث الأول

"القيم الحضارية"... تحرير المصطلح

لدينا وحدات دولية متفق عليها لقياس المسافة، وأخرى لقياس الزمن، وثالثة لقياس الحجم، ورابعة للوزن، وهكذا، وقد صُنعت أدوات قياس وفقا لهذه الوحدات يُعتَمد عليها في قياس المادة والظروف الحاوية لها، مكانا وزمانًا، وتقديرِ التطابق أو التفاوت فيما بينها، ومعرفة قَدْر كل متملَّك أو مستَهلَك منها بالقوة أو الفعل، في هذه الحالة أو تلك.

وفي عالم المعاني تقوم مجموعة من التقديرات المشابهة[1]؛ لم يُتَّفَق عليها بدقة وحسم كما حدث في أنظمة قياس المادة، ولكنها أشد منها رسوخا في حياة الكائن البشري؛ لأنها خاصة بالجوانب التي يمتاز بها الإنسان (الحق والخير والجمال) عن جميع المخلوقات التي نعرفها، وهي ما يُطلَق عليه اسم "القيم"؛ فما القيم؟

القيمة لغة واصطلاحا

يقول القاموس اللغوي: "القِيمةُ واحدة القِيَم... والقيمة ثمن الشيء بالتَّقْويم؛ تقول: تَقاوَمُوه فيما بينهم... ويقال: كم قامت ناقتُك؟ أي كم بلغت. وقد قامَتِ الأَمَةُ مائةَ دينار؛ أي بلغ قيمتها مائة دينار... والاستقامة: التقويم؛ لقول أهل مكة: استقَمْتُ المتاع؛ أي قوَّمته. وفي الحديث: قالوا: يا رسول الله، لو قوَّمْتَ لنا، فقال: "الله هو المُقَوِّم"؛ أي لو سَعَّرْتَ لنا - وهو من قيمة الشيء - أي حَدَّدْت لنا قيمتها"[2].

فالقيمة في اللغة هي القدْر والثَّمَن والغاية والمبلغ، كما قال المفسرون في تفسير قوله (سبحانه وتعالى): **{ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}** (سورة النجم: 30) أي: "غاية ما وصلوا إليه"[1].

---

1 - لاحظ مالبرانش من قبل أنه "إلى جانب نظام المقادير الكمي، يوجد نظام كيفي، هو نظام الكمال" جان بول رزفبر: فلسفة القيم ص 15، ترجمة: عادل العوا، الطبعة الأولى، عويدات للنشر والطباعة – بيروت 2001م.

2 - جمال الدين بن منظور الإفريقي: لسان العرب (مادة: ق و م) 11/ 357، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي – بيروت 1419هـ/ 1999م. وعن الحديث موضع الاستشهاد قال الحافظ نور الدين الهيثمي: "رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورجال الطبراني رجال الصحيح" بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 4/ 178، الحديث رقم 6467، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار الفكر – بيروت 1414هـ/ 1994م. وقد علق المحقق بقوله: "رواه أحمد (3/ 85) وابن ماجه رقم (2201) بدون "إن الله هو المقوم أو المسعر" فقط. وشيخ أحمد، (وهو) علي بن عاصم، ليس من رجال الصحيح، تُكُلِّم في سوء حفظه"ا.هـ. والتعليق يوهم بالقطع بخطأ حكم الهيثمي، حتى في رواية الطبراني التي لم يشر إليها المحقق، وللكلام تفصيل غير هذا، فالطبراني روى الحديث في الأوسط بصيغة: "إن الله هو المسعِّر" عن شيخه محمد بن محمد التمار قال: نا أبو معن الرقاشي، قال: نا عبد الأعلى، قال: ثنا سعيد الجريري، عن أبي نضرة. (أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط حديث رقم 5955، 6/ 110، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم، دار الحرمين – القاهرة 1415هـ/ 1995م). وكل رجال السند من رجال مسلم، وبعضهم من رجال الصحيحين معا، إلا التمار البصري، وقد قال الدارقطني عنه: "لا بأس به" أبو الحسن الدارقطني: سؤالات الحاكم ص 144، تحقيق : د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف – الرياض 1404هـ/ 1984م. وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: "من أهل البصرة، يروي عن أبي الوليد والبصريين، ربما أخطأ" أبو حاتم محمد بن حبان البستي: كتاب الثقات 9/ 153، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد الدكَّن، الهند 1398هـ/ 1978م. فالحديث حسن.

ويبدو ظاهرًا أننا نكون مع هذا المعنى اللغوي للقيمة بإزاء رموز تقوم بوظيفة اعتبارية؛ فقيمة الناقة أو الجارية المشار إليهما تعبران عن النقود – وهي رموز القيمة وقد لا تكون هي نفسها ذات قيمة مهمة – التي تُقوَّم بها هذه الأشياء، فتكون بمائة دينار أو ألف درهم مثلا. وقد قال ابن عباس (رضي الله عنهما): "الدراهم والدنانير خواتيم الله في الأرض؛ لا تؤكَل ولا تُشرَب، حيث قصدتَ بها قضيتَ حاجتك"[2].

ويقول القاموس الفلسفي: القيمة عند المثاليين "صفة عينية كامنة في طبيعة الأقوال (في المعرفة)، والأفعال (في الأخلاق)، والأشياء (في الفنون). وما دامت كامنة في طبيعتها، فهي ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والملابسات... [وهي عند الطبيعيين] صفة يخلعها العقل على الأقوال والأفعال والأشياء، طبقا للظروف والملابسات، وبالتالي تختلف باختلاف من يُصدِر الحكم"[3].

فالاختلاف بين المثاليين والطبيعيين ليس في مجالات تطبيق القيم (الأفكار والأخلاق وهيئات الأشياء)، ولكن في كون القيم ذاتية أو موضوعية؛ أي كونها صفات يخلعها العقل نفسه على مجالاتها، أو صفات لها وجودها المستقل عن العقل، والذي تكون وظيفته حينئذ اكتشاف الحقيقة القائمة فحسب.

والفرق هنا كبير، فالمثاليون يرون القيم ثابتة زمانا ومكانا، في حين يراها الطبيعيون نسبية، مما يعني أنها تختلف عندهم مكانا كما تختلف زمانا؛ وذلك حسب نوع الثقافة التي تغذي العقل الآخذ بهذه القيم.

وقد لا نعطي هذا الاختلاف حقه إلا إذا رأينا تأثيره الواسع في موقف المذاهب المختلفة من الأشياء وتقييمها لها، فـ"الرأي عند بعض العلماء أن اصطلاح القيمة **Value** مرادف أو معبر عن اصطلاح "نافع" **useful** أو "لائق". وغيرهم من يقول بأن القيم وثيقة الارتباط بالأفكار الاعتقادية، وبالذات المتعلقة منها بفوائد الأشياء في المجتمع؛ إذ الغالب عندهم أنها تعبر عن "المرغوب فيه"، و"المرغوب عنه" من وجهة نظر المجتمع"[4].

فهل القيم – وفقًا لهذا وبقطع النظر مؤقتًا عن كونها تعبيرا عن أشياء مادية أو أفكار واعتقادات - هل هي أشياء ذات أقدار معينة، أو أنها هي ذاتها معايير كلية تُعرَف بها أقدار غيرها؟ وبصيغة أخرى: هل القيم اعتبارات قياسية تتصل بالمعاني وتشبه آلات قياس المادة من زاوية ما، أو هي أهم المعاني والأفكار التي تشغل أرقى منزلةٍ في عقل من يعتقدها ونفسه؟

ونستطيع – في الحقيقة - أن نقول بالأمرين معًا؛ أي أن القيم معايير لقياس الأفعال الإنسانية والخيارات المتاحة أمام الكائن الحر المكلف، وهي في الوقت نفسه مبادئ كلية لها أقدارها ومكانتها في التأثير على توجهات أصحابها.

ومن هنا تبدو القيم – كما يقول بعض الغربيين - مسألة "معقدة، ليس بسبب تداخل تضمناتها وحسب، بل أيضًا من جراء المستوى المزدوج الصوري والمادي الذي تمفصله. ثم إن القيم مبهمة، إن لم نقل إنها مفارقات، بنتيجة أنها هي ذاتها تمثل بآن واحد بيئة تبلور الثقافة ونقطتها"[5]. فطاقة الحكم التي تملكها القيم تجعل لها بعدا صوريا، لكن تموضعها في الواقع يمنحها بعدا ماديا.

نخلص من هذا إلى أن القيم هي: كليات عقلية؛ أو أفكار قائمة في العقل، تمثل أصولا للرؤية الإنسانية للكون والنفس، وما ينبغي من ضروب التصرف العقلي والنفسي- حيالهما.

والجانب الأخير يعني أن هذه الكليات تمثل مقاييس لمعرفة الحق والباطل، والصواب والخطأ، والخير والشر، والجمال والقبح؛ أي أنها قوى تقييمية ومعيارية بالنسبة لغيرها من الأفكار وألوان السلوك والأشياء، مع قيمتها الذاتية.

وقد يُنظَر إلى هذا الجانب بشيء من الاستخفاف، باعتبار أنه من النظر الذي لا عمل وراءه. والحقيقة أن القيم – خاصة حينما نطبقها على مجال معين كإنتاج الحضارة - هي أساس كل عمل، ويكفي أن أهم أصول الاعتقاد تمثل جزءا منها – كما سيظهر فيما بعد - وصدق في هذا قول القائل: إن "الفكرة المجردة العابرة للزمان والشاملة للمكان، هي القيمة الجوهرية في منظومة القيم المميزة للحضارة، وبالتالي هي أساس مهم يسمِّي ويعرِّف الحضارة"[6]. وإن كان قد اعتبر أن الفكرة المجردة المشار إليها واحدة من القيم، في حين اعتبرنا كل القيم مجرد أفكار، قد تعبر عن واقع صحيح أو لا تعبر، حسب صحة المعتقَد وخطئه.

ومن جهة أخرى فإن "أية فكرة تحتوي على قوة كامنة فيها، ولا يقصَد بذلك أية دلالة غيبية... إن المقصود هو الصورة الواعية التي تتخذها مشاعرنا ودوافعنا. فكل فكرة لا تعني فعلا فكريا فحسب، ولكنها تعني أيضًا اتجاها معينا في عالمي الإحساس والإرادة... ليست الفكرة مجرد معنى ذهني، ولكنها تحتوي في ذاتها على قوة دينامية قادرة على أن تحرك الأفراد والشعوب، وتدفعهم إلى الاتجاه لتحقيق الغايات، وخلق الأنظمة (الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية) التي تساعد على ذلك"[7].

كما أن ما لا ينبني عليه عمل قد حدده الأصوليون بما لا يقوم عليه عمل قلبي أو عمل جارحي، فليس العمل فقط في المفهوم الإسلامي هو عمل الجارحة، وفي هذا المعنى يقول الإمام أبو إسحاق الشاطبي: "كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي؛ وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا"[1]. ومعرفة القيم معرفة بالمنطلقات وبالمبادئ الحاكمة لكل عمل.

---

1 - أبو الفداء إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم 13/ 271، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرين، الطبعة الأولى، مؤسسة قرطبة ومكتبة أولاد الشيخ للتراث – القاهرة 1421هـ/ 2000م.

2 - أبو الحسن علي بن محمد الماوردي: أدب الدنيا والدين ص 188، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت 1407هـ/ 1987م.

3 - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الفلسفي ص 151، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة 1403هـ/ 1983م.

4 - د. منال عبد المنعم جاد الله: التصوف في مصر والمغرب ص 87، منشأة المعارف – الإسكندرية، ب. ت.

5 - جان بول رزفير: فلسفة القيم ص 32.

6 - د. رفيق حبيب: في فقه الحضارة العربية الإسلامية حضارة الوسط نحو حضارة أصولية جديدة ص 156، الطبعة الأولى، دار الشروق – القاهرة 1422هـ/ 2001م. ويقول ألفن توفلر بحق: "يستحيل أن يدور دولاب أي عمل، إذا لم تكن هناك لغة وثقافة وبيانات ومعلومات ومهارات وخبرة" نحو حضارة جديدة ص 43، ترجمة: سعد زهران، الطبعة الأولى، مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر – القاهرة 1996.

7 - ج. ب. بيوري: فكرة التقدم ص 5، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، مراجعة: أحمد خاكي، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة 1402هـ/ 1982م. والنص من مقدمة الكتاب لتشارلز بيرد، وقد اقتبسه عن فوبيه.

ولكي نقترب أكثر من جلاء وجهة نظر الباحث في هذه المسألة، ومن خلال ثقافة ومنطلقات إسلامية، فإن قواعد أصول الفقه والقواعد الفقهية إذا كانت تمثل استقراء لمجموعات كبيرة من النصوص الشرعية، حتى تصبح هذه القواعد بمنزلة النظريات الشاملة للمسائل العملية الجزئية – فإن القيم هي الكلي الأعم، حتى بالنسبة لقواعد الأصول نفسها؛ أي أنها أصول أصول الفقه، وقواعد القواعد الفقهية – إن جاز لنا أن نطلق مثل هذه التعبيرات.

لنأتِ مثلا إلى التوحيد باعتباره قيمة القيم في الحضارة التي يمكن أن نصفها بأنها إسلامية، فسنجد أنه مدار التكليف، ومدار الجزاء، وأساس تصوراتنا للكون والحياة والمنبع والمآل، وهو الذي يخلع على الحياة معنى يختلف عن كل معنى في غيابه.

هذا، وقد توجه مبحث القيم في دراسته عموما إلى حيث وجهه الدارسون؛ وذلك حسب الزاوية التي دُرس منها؛ سواء أكانت اقتصادية أم نفسية أم اجتماعية أم أخلاقية. ولعل الدرس الفلسفي هو أولى الحقول العلمية للقيام على أمر هذا المبحث الخطير من وجهة النظر العامة؛ أي التي تعنينا هنا؛ وعلة ذلك هي أن العلوم الثلاثة المعيارية المتفق عليها (المنطق والأخلاق والجمال) هي علوم فلسفية في حقيقتها، كما في نشأتها، كما أن الدرس الفكري العام ينظر في أعم القضايا وأشملها، مما يمثل قواعد لدراسة كثير من العلوم الفرعية أو الجزئية.

الحضارة لغة واصطلاحا:

فإذا انتقل بنا السياق إلى مصطلح "الحضارة"، كان القصد من بيان مفهومه هو الاتفاق على المعنى المراد منه في هذه الدراسة خاصة، مما قد أتفق فيه مع باحثين آخرين أو أختلف؛ إذ إن مثل هذا البيان ذو أهمية خاصة في مثل هذا المبحث الافتتاحي؛ تحقيقا للانتقال الواضح إلى الأفكار الأخرى التي يعالجها هذا البحث.

وقد ذكر اللغويون أن كلمة "الحضارة" تُقرأ بفتح الحاء وكسرها، فنقول: حَضارة وحِضارة، ومثلها: بَداوة وبِداوة[2]، والمراد بها "الأمصار... وفي الحديث: "ولا يبيعن حاضرٌ لبادٍ"؛ وتأويل ذلك أن البادي يَقْدم وقد عرف أسعار ما معه، وما مقدار ربحه، فإذا جاءه الحاضر، عرّفه سنة البلد، فأغلى على الناس"[3].

والحضارة؛ بالكسر أو الفتح، "خلاف البادية والبداوة والبدو، والحِضارة بالكسر: الإقامة في الحضر"[4].

وكان الناس، حتى في القرون الأولى، يتنادون أحيانا بوصف الحضري والبدوي، وقد يتضمن ذلك إشارات توحي بطبيعة الحياة في كل بيئة منهما، مع إيحاء واضح بامتياز الحضري عن البدوي بثياب وهيئة غير ثيابه وهيئته، بحيث يعرف الناظر هذا من هذا، ومن ذلك ما رواه اللغوي الشهير عبد الملك الأصمعي قال: "كنت بالبادية، فجاءني أعرابي معه عبد أسود، فقال: يا حضري، أتكتب؟ قلت: نعم..."[5]. فالكتابة إن وجدت في البادية، فعلى الندرة الشديدة، وأما الحضر فهي ميزة فيه؛ اتسع نطاقها أو ضاق.

وقد استعمل ابن خلدون لفظ "الحضارة" في المقدمة بنفس معناها اللغوي تقريبا؛ أعني الحضر والإقامة فيه وما يرتبط بهذا من مظاهر خاصة للحياة، فعقد فصلا ناقش فيه "انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة"[6]، ورأى أن ذلك طور غالب على أكثر الدول. إلا أنه ربط بين الحضارة وبين بعض المظاهر التي تعبر عن جانب من تحضر المجتمع بالمعنى الاصطلاحي الذي سنبينه فيما بعد؛ يقول ابن خلدون: "الحضارة إنما هي تفنن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه؛ من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه؛ تختص به، ويتلو بعضها بعضاً، وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذّ، والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد"[7].

وتبدو الحضارة هنا في نظر ابن خلدون دائرة في فلك "الترف"؛ فهو مركزها الذي يتحرك كل شيء حوله، ويسعى إلى خدمته. وقد يكون هذا تصورا للسلطان السياسي القائم في المدن والأمصار الكبيرة وما يقترن به من مظاهر الحياة، أكثر من كونه تصورًا للحضارة، ويصدّق هذا قول ابن خلدون فيما بعد: "أمور الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع الملك..."[8]. نعم، قد تتجه الحضارة المادية إلى الترف والرفاه المادي باعتباره الغاية الأهم والهدف الأسمى لنشاطها، ولكن اعتبار ذلك عامًا في كل الحضارات أمر لا يقوم عليه دليل.

وقد أدرك ابن خلدون ما أدركه المعاصرون من أن الحضارة تنطوي على تجاوز للاستعمال الضروري للأشياء، أو تمثل تقدمًا لمرحلة أو أكثر في تجاوز الحد الأدنى من الانتفاع بالطبيعة، فقال: "الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر. وتقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع، ويحتاج كل صنف منها إلى القَوَمَة عليه، المَهَرة فيه"[9].

---

1 - الشاطبي: الموافقات 2/ 43، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، دار ابن عفان – الخبر، السعودية 1417هـ/ 1997م.

2 - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أدب الكاتب ص 550، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة – بيروت 1402هـ/ 1981م.

3 - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: الكامل في الأدب 1/ 86، تحقيق: د. محمد أحمد الدالي، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة – بيروت 1412هـ/ 1992م. والحديث رواه البخاري ومسلم. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب النهي عن تلقي الركبان، و أن بيعه مردود لأن صاحبه عاص آثم إذا كان به عالما و هو خداع في البيع و الخداع لا يجوز، ص 346، رقم الحديث 2163، الطبعة الثانية، دار السلام للنشر و التوزيع، الرياض- 1419هـ/ 1999م، وصحيح مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، ص 661، رقم الحديث 3825، الطبعة الثانية، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض – 1421هـ/2000م.

4 - محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس 11/ 39 – 40، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مراجعة: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت 1392هـ/ 1972م.

5 - الوزير الكاتب أبو سعد منصور بن الحسين الآبي: من نثر الدر 4/ 43، اختيار وتحقيق: مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة السورية – دمشق 1997م. وروى الأصمعي أيضًا قال: "كنت بالباديه أعلّم القرآن، فإذا أنا بأعرابى بيده سيف يقطع الطريق، فلما دنا مني ليأخذ ثيابي، قال لي: يا حضري، ما أدخلك البدو؟ قلت: أعلّم القرآن..." أبو الفرج بن الجوزي: صفة الصفوة 2/ 916، تحقيق: طارق محمد عبد المنعم، دار ابن خلدون – الإسكندرية، ب.ت.

6 - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة ص 191.

7 - ابن خلدون: المقدمة ص 191.

8 - ابن خلدون: المقدمة ص 193. وقد أدرك هذه القضية الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) فقال عن ابن خلدون: "إن مصطلح عصره قد وقف به عند ناتج معين من منتوجات الحضارة؛ ونعني به الدولة، وليس عند الحضارة نفسها" مالك بن نبي: شروط النهضة ص 62، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر – دمشق 1406هـ/ 1986م.

9 - ابن خلدون: المقدمة ص 413. ويقول بعض المعاصرين: "الحضارة هي في الخروج على الطبيعة، وفرض الطابع الإنساني عليها، بالقيم التي تتميز بها الطبيعة الإنسانية، والتقنيات التي تفرضها على أشيائها" تيسير شيخ الأرض: إرادة الحضارة ص 23، دار الفاضل – دمشق 1991م.

وقبل ابن خلدون ساق أبو حيان التوحيدي حديثًا طويلا ذكر فيه محامد العرب، وحاول أن يثبت خلاله أنهم مارسوا ألوانا من النشاط المتعلق بإنتاج الحضارة، فقال: "مما يدل على تحضرهم في باديتهم، وتبديهم في تحضرهم، وتحليهم بأشرف أحوال الأمرين، أسواقهم التي في الجاهلية..."[1]، وبعد أن أحصى التوحيدي أسواقهم قال: "وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قرب من العرب ومن بعد. هذا حديثهم وهم هَمَل لا عز لهم إلا بالسؤدَد، ولا معقل لهم إلا السيف، ولا حصون إلا الخيل، ولا فخر إلا بالبلاغة. ثم لما ملكوا الدُّور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمدن والبلدان والسهل والجبل والبر والبحر، لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف سنين، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم؛ بل أبروا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا"[2].

وإذا جئنا إلى الاستعمال الحديث لمصطلح "الحضارة"، فسنجد أنه قد علقت به بعض المشكلات هو الآخر، ومرجع ذلك، بالنسبة للمؤلفات العربية تحديدا، هو أن الترجمة العربية الحديثة لمصطلحي **Culture** و**civilisation** لم تتفق على مقابل محدد لكل منهما، كما لم ترتبط بالاستعمال اللغوي العربي البسيط، فتوزعت ترجمة **Culture** و**civilisation** ما بين "ثقافة" و"حضارة" و"مدنية"، مع اختلاف في المقصود بها أحيانا من مترجم إلى آخر[3]، حتى إن المترجم قد ينقطع عن المصدر الذي جاء منه هذان المصطلحان أحيانًا، ويتواصل معه في أحيان أخرى.

وقد فرق الرئيس والمفكر "الأوربي" الراحل علي عزت بيجوفيتش (رحمه الله) بين المصطلحين ثقافة **Culture** وحضارة **Civilisation**؛ ذاهبا إلى أن "الثقافة تبدأ بالتمهيد السماوي بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة... (و) تُعنَى بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها، فكل شيء في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان... أما الحضارة، فهي استمرار للحياة الحيوانية ذات البعد الواحد؛ التبادل المادي بين الإنسان والطبيعة"[4].

وأضاف أن "الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان، أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي. الثقافة معناها الفن الذي يكون به الإنسان إنسانا، أما الحضارة فتعني فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة. الثقافة هي الخلق المستمر للذات، أما الحضارة فهي التغيير المستمر للعالم"[5].

ولعل المنظور الذي انطلق منه بيجوفيتش هنا هو منظورٌ ثقافي غربي؛ أعني أنه راعى ظلال اللفظين في اللغات والثقافات الأوربية، كما تأثر برد فعله السلبي على مادية الحضارة الغربية الحديثة، وبالنقد الشديد الذي وجهه بعض مفكري الغرب، مثل نيتشه واشبنجلر، إلى حضارتهم. وخطابُ بيجوفيتش في كتاب "الإسلام بين الشرق والغرب" – الذي نقلنا عنه ما سبق من كلامه - هو خطاب موجه إلى العقل الغربي خاصة، ومن هنا لا أرانا ملزمين في كتاباتنا العربية بهذا الرأي نفسه – مع إجلالنا له ولصاحبه -؛ إذ إن المصطلح "حضارة" له استعمال مطروق في الثقافة العربية، خاصة عند ابن خلدون – كما سبق – أي أنه سابق على استعمال الغربيين لمصطلحي الحضارة والثقافة.

ومن جهته يقول الدكتور رفيق حبيب: "الحضارة هي نظام القيم والمعتقدات والعقائد والمبادئ المؤسِّسة للحياة العملية والحياة الاجتماعية، وكذلك الحياة السياسية والاقتصادية وغيرها"[6]. وتبدو في هذا الاستعمال إشكالية على نقيض الإشكالية السابقة، وهي قصر المصطلح على الجانب النظري وحده من الحضارة "القيم والمعتقدات والعقائد والمبادئ المؤسِّسة..."، وتبدو الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وفق هذا المنظور الثاني، مجرد انعكاس وأثر للقيم والعقائد، وليست جزءا من الحضارة.

ولعل الدكتور زريق كان أقرب إلى المعنى الذي نقصده من استعمال كلمة "الحضارة" في هذه الدراسة، فقد عنى بها حياة "المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته، وفي مكاسبه وإنجازاته، وفي القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها"[7]. إلا أن القيم والمعاني لا تكون – كما ظنها - كامنة في الحضارة فقط، أو منطوية فيها فحسب، بل تتجاوز ذلك فتمثل الأسس والدوافع والمعاني الحاكمة للحضارة عمومًا.

ولعلنا نجد لدى الكاتب نفسه ما يسد هذا الخلل، فقد ذكر بعد عشرات الصفحات أن لكل حضارة مفهومًا عامًا للوجود "يحدد لأبناء الحضارة معاني الحقيقة والخير والجمال، فيجعلهم يسلكون إلى المعرفة هذا السبيل دون ذاك، ويؤثرون بعض الخيرات على بعض، ويتقصون صورا من الجمال قبل سواها؛ وبذلك يحصل لديهم سلم معين للقيم، تحتل فيه هذه القيم درجات ومراتب مختلفة، وهذا السلم هو الذي يضبط نظام الحضارة الشامل، ويحدد الصورة الجامعة التي تنطبع بها"[8].

وعن هذا المعنى نفسه عبر كاتب المستقبليات الأمريكي الشهير ألفن توفلر قائلا: "قد تكون كلمة الحضارة طنانة، أو ذات رنين عال... ولكن الحقيقة أنه لا توجد كلمة أخرى تحتوي كل هذه الأمور المختلفة؛ مثل: التكنولوجيا، والحياة الأسرية، والدين، والثقافة، والسياسة، والأعمال، والتراتب والقيادة، والقيم، والنظرة الأخلاقية للجنس، ونظرية المعرفة..."[9].

---

1 - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة 1/ 83 - 84، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ب.ت.

2 - أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة 1/ 85.

3 - راجع قضية هذه المصطلحات بشيء من التفصيل في: نصر محمد عارف: الحضارة الثقافة المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، الطبعة الثانية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – هيرندن، الولايات المتحدة الأمريكية 1415هـ/ 1994م.

4 - علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص 94، ترجمة: محمد يوسف عدس، الطبعة الثانية، مؤسسة بافاريا بألمانيا، دار النشر للجامعات – القاهرة 1997.

5 - علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص 94 - 95.

6 - د. رفيق حبيب: في فقه الحضارة العربية الإسلامية حضارة الوسط ص 12.

7 - قسطنطين زريق: في معركة الحضارة ص 40، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين – بيروت 1981.

8 - قسطنطين زريق: في معركة الحضارة ص 130.

9- ألفن توفلر: بناء حضارة جديدة ص 30. وعن كلمة civilisation ومشتقاتها التي ظهرت بمعناها الاصطلاحي في الفرنسية سنة 1734م، وتبعتها بقية اللغات الأوربية، يقول بريتون: إنها "تدور حول مفاهيم التربية والترقي والتطور والحالة المتفوقة المتقدمة... ثم إن الحضارة هي... جملة الصفات المكتسبة خارج الطبيعة. وهي أخيرا: مجموع الظواهر المميِّزة للحياة في هذا العالم الخاص المتطور الذي بناه الإنسان المدني" رولان بريتون: جغرافيا الحضارات ص 20، تعريب: د. خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى، منشورات عويدات – بيروت، باريس 1993م.

مهما يكن، فإنني سأستعمل مصطلح "الحضارة" في هذه الدراسة قاصدًا به: ثقافة الأمة وتقاليدها، ونشاطها العملي القائم عليها، والإنجاز المادي الناتج عنهما حين تجتمع في وقت واحد؛ في أحوال غير عادية. وإذا غاب أي من هذه الأطراف الثلاثة، أو بهت حضوره وفاعليته، كان في الحضارة نقصان، أو فقد للتوازن، أو غياب تام لها، وعيش في رحاب الحالة الخام للإنسانية.

والإنجاز المادي هنا يشير إلى التأثير العميق والواسع في الواقع المادي، ولا يعني بالضرورة المباني الفارهة، أو القصور الواسعة.

قيم الحضارة اصطلاحا:

هذا هو مفهوم الحضارة، وذاك مفهوم القيم، فما المقصود بـ "قيم الحضارة"؟ وما الفرق بينها وبين القيم مطلقة من كل قيد؟

أول ما يساعدنا في الإجابة عن هذين السؤالين هو النظر في محتوى الحضارة، وتصور ما تشتمل عليه من مفاهيم نظرية وممارسات عملية، ثم تحديد موضع القيم من هذا. وفي هذا نلاحظ أن هناك أفكارًا تؤسس للنشاط الإنساني عمومًا، وتدفع إلى هذا اللون من السلوك دون ما يقابله، وينشأ عن هذا النشاط الإنساني إنجاز أو نتيجة تَمْثُل في واقع الحياة، وتتفاوت قيمتها وأهميتها في تناسب طردي مع نوعية النشاط وكمه.

ولكي نخرج من التجريد، فإن الغرب الحديث، مثلا، قد دفعته الرغبة في المزيد من معرفة الكون للانتفاع به، إلى الاتساع في الاستجابة لحاجات الإنسان المادية، ونشأت الحداثة الغربية على تقديس العقل، والاعتماد على النزعة التجريبية في العلم، واتكأت على مبدأي الحرية واحترام القانون.

وهذا يعني أن الحضارة لها أسس، ولها ممارسات، ولها أخيرا إنجاز واقعي يتجلى في المادة والعلم والفن والفكر. دون أن يعني هذا أن الإنجاز المذكور هو الثمرة الحاكمة على الفعل الحضاري وتقييمه عمومًا، بل هي بالأولى دليل واقعي على فاعلية الممارسات الحضارية، والطاقة الكبيرة التي تختزنها أسس الحضارة بحيث تقدر – وهي مجرد أفكار – على تفعيل قدرات الإنسان وملكاته إلى حدود مذهلة أحيانًا.

ومن هنا نستطيع أن نعرّف قيم الحضارة بأنها: المفاهيم النظرية التي تحكم ألوان النشاط المختلفة التي يمارسها الإنسان عند صناعة الحضارة، بحيث تمثل هذه المفاهيم أسسا وأداةَ قياس للتحضر ونشاطاته، ويمثل التحضر تعبيرا واقعيا عنها، بهذا الشكل أو ذاك.

والفرق بين القيم مطلقًا وبين قيم الحضارة، وفقا لهذا، هو أن الأولى تمثل الأسس النظرية للسعي الإنساني في كل حال؛ أعني حال التحضر وغيره على السواء، وأما قيم الحضارة فهي خاصة بتلك الحال المحددة التي يتقدم فيها مجتمع بشري ما في سلم الرقي.

إن القيم بمعناها المطلق هي تقديرات عامة أو وحدات قياس عامة للأشياء (جمالاً أو قبحًا)، وللفعل الإنساني (خيرًا أو شرًا)، وللحكم الإنساني (خطأ أو صوابًا). وأما القيم الحضارية، فهي ليست مقاييس خالصة كهذه الأولى، ولكنها مع هذا مبادئُ نظرية عامة ذات قيمة خاصة، تمثل للحضارة دوافعَها وأسسها العقلية والنفسية، كما تمثل نشاطاتُ الحضارة وإنجازاتها ترجمة عملية وواقعية لها.

ولكن، ألا يقدم ذلك صورة ضامرة للقيم الحضارية باعتبارها مقياسا نحكم به على صناعة التحضر نفسها؟ والحق أننا لا ننتظر أن تملك المعاني العامة التي نسميها "القيم الحضارية" نفس القدرة التي تملكها القيم المطلقة على القياس والتقدير؛ فالألفاظ خيّر وشرّير وجميل وقبيح وصواب وخطأ؛ هي في ذاتها حُكم، فأستطيع معها أن أقول: هذا الفعل خيْر أو شر، وهذه الصورة جميلة أو قبيحة، وهذا الرأي صواب أو خطأ. وأما القيم الحضارية، فتمتلك طاقة المعنى الشامل والأساسي أكثر من طاقة الحكم.

ومع هذا، فإن هذا الشمول الذي تمتاز به القيم الحضارية، يعطيها قدرة على الحكم بمعنى ما؛ وذلك أن القيم الحضارية تتمثل فيها ثقافة الأمة وأصول المعاني الحاكمة لمسارها واختياراتها، وانتماء المعاني الجزئية إليها يمنحها قدرة على الحكم – كما سنرى في المبحث القادم.

لكن ينبغي أن نتنبه إلى أهمية تحرير مصطلح "القيم الحضارية" الذي شاع استعماله في زماننا بصورة لافتة للنظر، دون بيان كاف – فيما طالعت – للفرق بينه وبين مصطلح "القيم" بمعناه المطلق، ودون بيان كذلك للوجه الذي من خلاله أطلقنا على القيم الحضارية هذه التسمية[1].

بل نحت بعض الدراسات منحى أكثر غرابة في استعمال مصطلح "القيم"، حيث سوّتْ بينه وبين مصطلح "الأخلاق"، فإذا قالت "القيم الإسلامية"، فالمقصود هو "الأخلاق الإسلامية"[2]. على الرغم من أن القيم لا تتناول من الأخلاق إلا جانب الحُكْم بالخيرية أو الشرِّية على الفعل الأخلاقي فحسب.

المبحث الثاني

خصائص القيم الحضارية

مع هذا المبحث نخطو خطوة جديدة في اتجاه التأسيس للمفاهيم الخاصة بهذه الدراسة؛ وذلك أن الكشف عن خصائص القيم يساعد على المزيد من تأطيرها بعيدا عن العمومية التي يمكن أن يقع فيها درس القيم.

---

1 - يمكن ملاحظة ذلك من خلال عناوين بعض المقالات والكتب التي صدرت، والمؤتمرات التي عُقدت في هذا الصدد؛ مثل:

- مسؤولية المجتمع الدولي عن الردة الديمقراطية وانتكاسة القيم الحضارية، مقال للدكتور عبد الهادي بوطالب بصحيفة الشرق الأوسط، الأربعاء 16 رمضان 1423 هـ/ 20 نوفمبر 2002 العدد 8758 . وقد اعتبر القيم الحضارية هي تلك التي "أعلنتها الأمم المتحدة في مواثيقها وإعلاناتها واتفاقياتها، وأصبحت تراثا مقدسا للبشرية، وملكا مشاعا بين فصائلها".

- القيم الحضارية في السنة النبوية: ندوة علمية دولية أقامتها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي عام 1428هـ/ 2007م. لكنني – للأسف – لم أقع على أوراق هذه الندوة، لكن المحاور التي اشتملت عليها تقول بشيء مما ذكرته.

- أروع القيم الحضارية في سيرة خير البرية: تحقيق علمي حول الشبهات المثارة حول زواج النبي الكريم وجهاده وشمائله صلى الله عليه وسلم، كتاب للباحث السنغالي انجوغو امبكي صمب، مطبعة دار الكتاب يمبل، دكار – السنغال، 1427هـ 2006م. والحقيقة أن الجزء الثاني من العنوان كاف وحده في التعبير عن محتواه وطريقة عرض المؤلف لموضوعه.

- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة – القاهرة 1415هـ/ 1995م. ومع أهمية الكتاب الكبيرة في مجاله، إلا أنه لم يفْصل في قضية استعمال مصطلح القيم، ويكاد يسوي بينه وبين مصطلح "خصائص": انظر: ص 27، 28، 29.

2 - انظر مثلا: الشيخ محمد عبد الواحد أحمد ود. جابر قميحة وآخرون: دراسات في الحضارة الإسلامية (بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري)، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة 1985م. حيث عُبِّر عن الأخلاق التي تضمنتها بعض الآيات القرآنية بالقيم 3/ 8، واستُعمل مصطلح "القيم الإسلامية" بمعنى "الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية"، 3/ 40.

وصعوبة الخوض في هذه المسألة تكمن في أنها تفحص عن خصائص أعم الأفكار الحاكمة في الحياة الإنسانية؛ سواء منها ما كان مشتركًا بين حضارات مختلفة، وما كان فيه نوع ما من الامتياز والاختصاص بحضارة دون أخرى.

ولقد حاول بعض فلاسفة اليونان من قبل تحديد أهم أجناس الوجود - لا خصائصها ولا أجناس المعاني - واشتهرت في ذلك نظرية أرسطو في المقولات العشر ـ **The Ten Categories**، والتي صنف فيها الموجودات اعتمادًا على انقسامها إلى ذوات ولواحق بهذه الذوات، أو جواهر وأعراض، واعتبر الجواهر كلها جنسًا واحدًا؛ بقطع النظر عن الفروق الكبيرة القائمة بين الأشياء، في حين جعل الأعراض تسعة كاملة (الكم، والكيف، والإضافة، والأين، والمتى، والملكة، والوضع، والفعل، والانفعال) تتعلق بمختلف حالات الجوهر[1].

أقول: إن صعوبة الخوض في هذه المسألة، التي هي عنوان هذا المبحث، تكمن في أننا نكون معها بصدد الفحص عن خصائص أعم الأفكار الحاكمة في الحياة الإنسانية، وليس أعم أجناس الموجودات المحسوسة فقط، والتي تبدو هينة شيئا ما، وإن كان قد اعتُرض على اقتراح أرسطو السابق فيها اعتراضات كثيرة[2] تنامت مع تقدم العلوم الحديثة.

هذا، وقد تكلم الإمام الشاطبي عما وصفه بأنه صُلب العلم من مسائل وقضايا، ووصفه بأنه "الأصل والمعتمد، والذي عليه مدار الطلب، وإليه تنتهي مقاصد الراسخين"[3]، ثم حاول أن يسجل أهم خصائصه، فذكر منها: العموم والاضطراد، والثبوت من غير زوال، وكونه حاكما لا محكوما عليه[4]. ويكاد يلامس هذا الكلام جانبا كبيرا من خصائص القيم الحضارية، والتي سأفصلها فيما يلي:

1- العموم أو الكلية:

وهي من أهم خصائص القيم جملةً وأبرزها؛ إذ تمتاز بالعموم والشمول، حيث تنزل من غيرها من المعاني منزلة الأصول من الفروع، والإطار الكلي الذي يمكن أن نرد إليه الجزئيات؛ حسب المجال الذي تحكم فيه القيمة.

وإذا كان المنطقيون يقصدون بالكلي الجنسَ والنوع، فإن كلية القيم بالنسبة للمعاني والأشياء ليست بهذه المثابة، فليست العلاقة بين الأشياء محكومةً دائما بهذا التصور المنطقي الذي يرجع إلى أرسطو، حيث يجمع الأشياء في نَظَره فصولٌ مقوِّمة أو صفات أساسية نعرف منها ما الشيء الذي يتصف بها (مثل: الحركة الإرادية في الحيوان؛ فهي عامة في كل أنواع هذا الجنس، وبها يُعرَّف)، كما يميز الأشياء بعضها عن بعض فصول مفرِّقة بها نميز نوعًا عن نوع أو جنسا عن جنس (كالنطق أو العقل الذي يميز نوع الإنسان عن بقية أنواع الحيوان).

أقول: ليست العلاقة بين الأشياء محكومة دائما بهذا التصور المنطقي القديم؛ إذ قد ينتمي فرع إلى أصل على هيئة غير هذه الهيئة، وفي صورة غير تلك الصورة؛ كانتماء الإنسان إلى التراب والماء مثلا، حيث يمثلان المادة الخام لتكوين بدن الإنسان - وهو ما أثبته حديثًا التشابه بين عناصر الجسم الإنساني وعناصر التراب – ولا نعدهما جنسا له ولا نوعا.

ولعلنا نتصور انتماء الفعل الحضاري إلى القيم الحضارية الحاكمة له تصورا واضحًا حين نفهم علاقة الإنسان بالعالم من حوله وسيرته معه؛ فقد بدأت رحلة الإنسان فوق كوكب الأرض في مرحلة زمنية متأخرة نسبيًا؛ فإذا كان عمر الأرض يرجع إلى حوالي أربعة مليارات سنة، فإن وجود الإنسان فيها لا يتجاوز أربعة ملايين سنة حسب أحدث المكتشفات (أي بنسبة 1000: 1)؛ وهذا يعني أن الأرض قد مرت عليها دهور طويلة عاشتها بدون هذا المخلوق، وقبله عاشت مئاتُ آلافِ الأنواع من الأحياء في هذا الحيز الجغرافي نفسه؛ منها ما بقيت أنساله إلى الآن، ومنها ما لم يتبق منه إلا مجموعة من الأحافير الخالية من كل أثر للحياة، وإن كانت صورتها توحي بسابق وجودها هنا إيحاءً، ومنها ما عاش هنا من قبل، لكن لم يتبق منه شيء نميزه إطلاقا.

ثم إن الحيز الذي يستعمله الإنسان من العالم هو أيضًا حيز صغير جدًا جدًا، وهو هذه المساحة المسكونة من الأرض، وليس كل الأرض؛ مما يعني أن الوجود الظرفي للإنسان (خلال الزمان والمكان) هو وجود محدود جدًا، وإلى درجة مذهلة.

لكن ثمة جدلية عجيبة، لعلها خاصة بالإنسان وحده من دون مخلوقات العالم، وهي إمكان اختراقه للزمان والمكان بناء على الاستخدام الواسع لملكاته المذهلة[5] قياسا إلى ملكات الأنواع الأخرى من الكائنات المشاركة له في الحياة داخل الحيز الجغرافي نفسه. ولما لم يكن هذا الاختراق أمرًا هينا ودونه عقبات وعقبات، فقد لزم أن يستعمل الإنسان في هذه المهمة ملكاته النفسية والعقلية في أرقى صورها وأقصى مدى لها.

ولكن هذه الملكات لم تكن لتعمل بدون حافز؛ ولهذا ارتبط السعي إلى اختراق الزمان والمكان بمنافع تتحقق للإنسان، تصل في خطورتها إلى درجة أن اختراقه هذا لا ينفصل عن ضرورياته التي لا يستغني عنها وجوده نفسه؛ أعني أن مطالب الإنسان الضرورية تتوفر – وعلى مستويات متفاوتة من الوفرة والجودة – خلال جدليته هذه مع الكون؛ ولهذا فهو يجد من نظام حياته نفسه دافعًا إلى التعرف على الوجود واكتشافه.

يقول الشاطبي: "إن قيام الدين والدنيا إنما يصلح ويستمر بدواعٍ من قبل الإنسان تحمله على اكتساب ما يحتاج إليه هو وغيره، فخلق له شهوة الطعام والشراب إذا مسه الجوع والعطش؛ ليحركه ذلك الباعث إلى التسبب في سد هذه الخلة بما أمكنه، وكذلك خلق له الشهوة إلى النساء لتحركه إلى اكتساب الأسباب الموصلة إليها، وكذلك خلق له الاستضرار بالحر والبرد والطوارق العارضة، فكان ذلك داعية إلى اكتساب اللباس والمسكن... فأخذ المكلف في استعمال الأمور الموصلة إلى تلك الأغراض، ولم

---

1 - انظر: الفصل الثاني من: المقولات العشر في الفكر الفلسفي الإسلامي حتى نهاية القرن السادس الهجري؛ رسالة دكتوراه مودعة بمكتبة كلية دار العلوم – جامعة القاهرة لصاحب هذه الدراسة، وقد نوقشت في مارس 2004م.

2 - انظر: الفصل الثاني من: المقولات العشر في الفكر الفلسفي الإسلامي.

3 - الشاطبي: الموافقات 1/ 107.

4 - الشاطبي: الموافقات 1/ 108 - 110.

5 - من الناحية المكانية، تجاوز الإنسان كوكبه الذي لا يبدو أنه يستطيع السكنى إلا فيه، وحط بنفسه أو مراكبه فوق كواكب أخرى. ومن الناحية الزمانية، اطلع الإنسان على كثير من أسرار الماضي السحيق والقريب من خلال ما بقي من آثار وأحافير.

يجعل له قدرة على القيام بذلك وحده، لضعفه عن مقاومة هذه الأمور، فطلب التعاون بغيره، فصار يسعى في نفع نفسه واستقامة حاله بنفع غيره، فحصل الانتفاع للمجموع بالمجموع، وإن كان كل أحد إنما يسعى في نفع نفسه"[1].

لكن؛ لأن الإنسان افترق عن الحيوان بملكات ثم بمطالب أرقى، فقد بدا أن ثمة تفاوتا في الالتزام البشري بالصورة المثلى للسلوك، وهو تفاوت لا نجد له مثيلا ولا قريبا منه في أنواع الكائنات الأخرى؛ ولهذا لزم أن تكون للإنسان قاعدة نظرية تحكم سلوكه عمومًا، فتكون تصرفاته وسلوكياته في عمومها انعكاسا لهذا الجانب النظري.

وبهذا تبدو هذه القاعدة (أو القيم)، كأمهات نظرية عامة للتوجهات السلوكية التي يختارها الإنسان وهو يسعى في الحياة.

وهذه العلاقة بين الواقع وأسسه النظرية، هو الذي يمنح هذه الأسس (أو القيم) موقعها الكلي والعام قياسًا إلى ألوان السلوك الجزئي المختلفة.

2- موضوعية أم ذاتية؟

سبقت الإشارة إلى اختلاف المثاليين والطبيعيين في تحديد طبيعة القيم بمعناها المطلق؛ وهل هي ذاتية أم موضوعية؟ هل هي صفات ثابتة في الأشياء نحن نكشف عنها، ونكتفي معها بتسجيل القيمة فحسب، أو هي صفات يخلعها العقل من نفسه على الأشياء والأفعال دون أن تكون فيها على الحقيقة؟

ونستطيع أن نطرح سؤالا آخر يعالج المسألة من جذورها، وهو: هل الحكم – الذي يؤسس للقيم - انفعال خالص، أم فعل خالص، أم شيء مشترك منهما؟ ولا نملك الإجابة عن هذا السؤال بدون تمييز سابق بين أحكام يتفق أغلب الناس عليها، وأخرى يختلفون عليها، أو أحكام لا يختلف حكم الإنسان عليها بين وقت وآخر ما دامت معلوماته عنها مستوفاة في كل حال، وأحكام أخرى تتأثر بالوضع النفسي لصاحبها.

وإذا كان اختلاف الناس قد وقع في الحكم على بعض الأخلاق الأساسية مثلا؛ كالإيثار والعفو والنجدة التي عدها بعضهم ضعفًا، فإن ذلك إما أنه راجع إلى تمحكات فلسفية، أو إلى النظر إليها استنادًا إلى اعتبارات لا تستوفي فيها هذه الأخلاق قيمتها؛ كعفو المغلوب على أمره، وإيثار المرائي ونجدته. ولا شك أن أخلاق الإيثار والعفو والنجدة هي أخلاق قوة باعتبار أساسي، وهو أن تصدر بدافع ذاتي عن حر يقدر على نقائضها.

ومن هنا نستطيع أن نأخذ اتفاق عموم الناس على حكم ما – ما دام نظرهم إليه يستند إلى اعتبار واحد - دليلا على كونه موضوعيًا، وخضوعَ الحكم للحالة النفسية للإنسان وتأثره بها، وكذا تفاوته من بيئة إلى أخرى (كاتخاذ السواد في بعض البيئات شارة حزن، ونيابة البياض عنه لهذا الغرض في بيئات أخرى)، دليلا على كونه حكما ذاتيا. والشعبة الأولى هي شعبة الأحكام الأخلاقية والعقلية، وأما الثانية فهي شعبة الأحكام الجمالية.

ولكن ثمة مخاطر جمة تهدد الحقائق لو اعتمدنا على هذا المقياس (رأي الأكثرية) في معرفة الذاتية والموضوعية في القيم الحضارية تحديدا؛ حيث إن الغالبية العظمى من البشر تؤمن بوجود إله خالق للكون، مع اختلاف تصورهم له، إلا أن توحيد هذا الإله بمعناه الكامل لا يوجد إلا في الإسلام، وأتباعه ليسوا أكثرية، على أية حال. فهل نقبل الإيمان بالله لأن الأكثرية تؤمن به، ونرد التوحيد لأن الأكثرية ترده؟!

إن قصيدة يونانية قديمة تُنسَب إلى الفيلسوف الشهير أكسينوفان تكشف عن جانب كبير من هذه الأحجية، حيث تخبَّطَ البشر في محاولة اكتشاف الحقيقة لأنهم طلبوها من غير طريقها، حتى أدى الأمر بالشاعر الفيلسوف نفسه إلى إنكار أننا قد نعرف الحقيقة أصلا، وإن نطقنا بها أحيانًا! يقول:

"يقول الأحباش إن آلهتهم ذوو أنوف فطساء وبشرة سمراء

بينما يقول التراقيون (نسبة إلى منطقة في اليونان) إن آلهتهم ذوو عيون زرقاء وشعر أحمر

وأيضًا إذا كان للأنعام والجياد والليوث أياد وكانوا يستطيعون التصوير

ونحت التماثيل كما يفعل البشر، لرسمت الجياد آلهتها

في صورة تشبه الجياد، ورسمتها الأنعام في صورة تشبه الأنعام، وكل حينئذ سوف يشكل أجسام آلهته في صورة تشبه الجسد الخاص بنوعه...

لا تكشف الآلهة، منذ البداية

كل الأشياء لنا؛ لكن بمرور الوقت،

ومن خلال البحث قد نتعلم ونعرف الأشياء بصورة أفضل

وبالحدس نرى أن هاتيك الأشياء تماثل الحقيقة.

أما عن الحقيقة اليقينية، فلا إنسان يعرفها

ولن يعرفها إنسان، ولا أحد من الآلهة

ولن يعرف كل الأشياء التي نتحدث عنها

وحتى إذا تفوه أحد مصادفة

بالحقيقة النهائية، فإنه هو نفسه لن يعرف هذا

فالأمر جميعه لا يعدو أن يكون شبكة ننسجها من التخمينات"[2].

ولعل هناك من يدعم رفض الاحتكام إلى هذا المقياس (أعني موقف الأكثرية) أكثر من هذا ببعض نصوص الوحي المعصوم؛ مثل قول الله تعالى: **{وَ إِن تُطِع أَكثَرَ مَن فَي الأَرضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ؞ إِيَّتَّبِعُونَ إِلاَ الظَّنَّ وَ إِن هُم إِلاَّ يَخرُصُونَ}** (سورة الأنعام: **116**)، وقوله سبحانه: **{وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمُونَ}** (سورة الأعراف: **187**)، وقوله: **{وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤمِنُونَ}** (سورة هود: **17**).

وهذا صحيح تمامًا حين يكون الحكم في قضية هي محل اختيار الإنسان؛ مثل الإيمان بالدين، وتصديق المرسلين، والعمل بتعاليمهم التي أُرسلوا لتبليغها. وأما حين يكون الحكم على قيمة مجردة ترتبط بفطرة الإنسان وطبيعته، فأحسب أن الاستضاءة برأي الأكثرية في هذا يفيدنا في تحديد ذاتية القيم وموضوعيتها.

---

1 - الشاطبي: الموافقات 2/ 303.

2 - كارل بوبر: أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية ص 66، تحرير: مارك أ. نوترنو، ترجمة: د. يمنى طريف الخولي، سلسلة علم المعرفة – الكويت، ع 292، أبريل/ مايو 2003م.

إن الخطأ في الحكم هنا؛ أعني في نص أكسينوفان، راجع إلى أن الذات المدرِكة هي التي حددت الموضوع المدرَك، فتصوَّر هؤلاء إلههم على صورة، وأولئك إلهَهم على صورة أخرى. فما قاله هذا الشعر قائم على سوء فهم للقضية أصلا؛ وذلك أن سبب الخطأ الذي وقعت فيه الأقوام المختلفة في قضية الألوهية، هو أنهم طلبوا الحقيقة من غير بابها، أو طلبوا ما لا يُدرَك أصلا، وقد قال الكندي بحق: "تحير كثير من الناظرين في الأشياء التي فوق الطبيعة؛ إذ استعملوا في البحث عنها تمثُّلَها في النفس على قدر عاداتهم للحس، مثل الصبي؛ فإن التعليم إنما يكون سهلا في المعتادات"[1].

وإذا كان الفيلسوف اليوناني القديم قد قال ما قال، فالعجب أن يقوله أحد المعاصرين في زماننا هذا، ففي كتابه "عندما تغير العالم"، عرض الإعلامي البريطاني اللامع جيمس بيرك لتغير نظرة الناس إلى الأشياء تبعا للنظرية الفيزيائية السائدة في تفسير العالم، ثم عقب على ذلك بقوله: "إن جميع الأفكار في كل الأزمان أفكار سليمة على قدم المساواة، ولا توجد حقيقة ميتافيزيقية تتصف بأنها فوق العادية، ونهائية، ومطلقة، كما لا يوجد اتجاه خاص للأحداث. والكون - في نهاية الأمر – هو ما نقوله نحن عنه. وعندما تتغير النظريات يتغير معها الكون؛ أي أن الحقيقة نسبية"[2].

ومهما يكن، فإن ملخص هذه الخاصية التي تمتاز بها القيم الحضارية، هو أنها في أكثرها موضوعية تُستَقَى من الواقع مباشرة، وبعضها ذاتي ينبع في جانب كبير منه من الوضع النفسي للإنسان. ولكن لأن للدين – الذي هو اختيار حر للإنسان - دخلا مباشرا يفرق بين حضارة وأخرى في هذا الجانب، فإن التمحيص عن أسباب اختلاف البشر في بعض الحقائق يكشف عن أن كثيرا من الموضوعات قد دخل العقل البشري إليها من غير بابها، كما هو الحال في مسألة التوحيد، وكذلك تصور الأمم المختلفة للإله.

3- حاكمة أو أداة للقياس:

لعل جانبا كبيرا من هذه الخاصية قد اتضح خلال المناقشات السابقة؛ فالقيم المطلقة حاكمة على أقوال الإنسان وأفعاله وعلى الأشياء، أو هي أدوات قياس لها، ووحداتها في جانب الأقوال هما الصواب والخطأ، وفي جانب الأفعال الخير والشر، وفي جانب الأشياء القبح والجمال.

والحق أن اختلاط الخير والشر، وتداخل الجمال والقبح، واجتماع الصواب والخطأ – هي أمور مشهودة في الواقع[3]؛ سواء تكلمنا عن عالم المكلَّفين من الناس، أو غيره من العوالم غير المكلفة؛ فالثعبان المخيف القاتل يُتَّخذ من سمه علاج، والآلام المبرحة تكشف عن حاجة الجسم إلى الدواء، وهكذا.

وأدهى من ذلك أن القيم الإيجابية الثلاث (الخير والصواب والجمال) ليست متلازمة دائمًا بحيث يكون كل صائب جميلا وخيرًا، وكل خيرٍ جميلا، وكل جميل صائبا. كما أن القيم السلبية (الشر والخطأ والقبح) ليست متلازمة كذلك، فقد يكون القبيح خيرًا، وقد يكون الشرير جميلا، ويكفي أن نشاهد مثلا كائنا رائع الجمال ولكنه ينطوي على خطر هائل كما في الغابات وأعماق البحار مثلا.

وطريقة التقييم في مثل هذه الحالات تقوم على فرز الصفات بعضها عن بعض، وتمييز القيم باعتبارات تناسب كل قيمة، فنقول عما هو جميل وقبيح: إنه قبيح من ناحية كذا، وجميل من ناحية كذا، وكذلك هو خيرٌ باعتبار فعله، قبيح باعتبار منظره، أو جميل الصورة شرير الأخلاق، وهكذا. وقد "نظر بعض الحكماء إلى رجل سوء حسن الوجه، فقال: أما البيت فحسن، وأما الساكن فرديء"[4].

وأما القيم الحضارية بوجه خاص، فلعل التداخل الشديد في عالم المعاني يحول في كثير من الأحيان بين هذه القيم وبين تقديم قياسات دقيقة للفعل الحضاري والنتاج الحضاري، مثل هذه التي تقدمها آلات قياس المادة. وهذا طبيعي تماما؛ لأن المرونة العالية التي يتمتع بها عالم المعاني تحول دون ضبطه والتحكم فيه، كما يحدث في عالم المادة الثابت؛ في الظاهر على الأقل.

لكن يبدو لي أن القيم الإسلامية للحضارة تبدو حاكمة على الأفعال والأفكار والأشياء التي تنضوي تحت الحضارة، من زاوية توافق هذه الأخيرة مع مقتضيات القيم ولوازمها أو عدم توافقها، فمن مقتضيات التوحيد، مثلا، طاعة الله (تعالى) في الأخذ بالأسباب، دون أن يظن الموحِّد أن الأسباب تعمل منفصلة عن صاحب القانون الذي رتبها.

لكن، بأي حكم ستحكم قيمة حضارية كالتوحيد على الأفعال الموافقة، وكذلك الأفعال المخالفة لها؟

إن القيم الخلقية، كما استقرت في عرف الدارسين، تحكم على الفعل بأنه خير أو شر، والقيمَ العقلية تحكم على القول بأنه صواب أو خطأ، والقيم الجمالية تحكم على الشيء بأنه جميل أو قبيح. فماذا عن القيم الحضارية؟

ولعل هذه مسألة جديدة، وجديرة بالطرح في إطار هذه الدراسة التي تهتم بالتأسيس اهتمامها بالتطبيق؛ فهل نطلق على ما يخالف التوحيد اسم الشرك، وما يخالف التوازن لفظ الإفراط أو التفريط، وما يخالف العدل حكم الجور؟

وتبدو أسطري حيرى في هذه المسألة، وما أقدمه هنا لا يزيد على كونه مقترحا أرجو أن يجد مجالا للمناقشة من قبل المهتمين بالشأن الفكري الإسلامي والإنساني عموما؛ وذلك أن عرض الفكرة في إطارها الفقهي يفرض علينا الالتزام بأحكام الحِل والحرمة والكراهة، وفي إطارها العقدي – إن كانت القيمة منتمية إلى مسائل العقيدة – بأحكام الإيمان والكفر، أو الاتباع والابتداع العقدي، وأما عرض الفكرة في الإطار الحضاري، فأحسب أن الأنسب هو الحكم عليها بالمخالفة أو الموافقة للروح الحضارية الإسلامية، وإذا شئنا التفصيل كان لابد من اللجوء إلى التحديدات الفقهية والعقدية السابقة.

4- إنسانية:

أعني بهذه الخاصية أن القيم الحضارية – مثل الحضارة نفسها – هي خاصة بالإنسان دون غيره من سكان الأرض؛ إذ تمثل انعكاسا لرسالته في الأرض، وتُظهر وجوه امتيازه واختلافه عن غيره ممن نعرفهم من الخلق، وتحدد طبيعته المرتبطة بالحرية النسبية والمسئولية الشخصية غالبا والجماعية أحيانا.

---

1 - أبو يوسف يعقوب الكندي: كتاب الفلسفة الأولى (ضمن رسائل الكندي الفلسفية، القسم الأول) ص 42، تحقيق: د. محمد عبد الهادي أبو ريده، الطبعة الثانية، مطبعة حسان – القاهرة 1398هـ/ 1978م.

2 - جيمس بيرك: عندما تغير العالم ص 362، ترجمة: ليلى الجبالي، مراجعة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة – الكويت، العدد 185، مايو 1994.

3 - ناقش بعض الباحثين، من زاوية أخرى، الرأي القائل بالتوحيد بين الحق والخير، والآخر القائل بالتوحيد بين الحق والجمال، وكذلك الرأي القائل بالتوحيد بين الجمال والخير، انظر: د. توفيق الطويل: أسس الفلسفة ص 176 – 184، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة 1952م.

4 - أبو الحسن الماوردي: أدب الدنيا والدين ص 140.

وتبدو تجليات ذلك في أن الإنسان حين يصنع الحضارة لا يوظف قواه البدنية فقط، بل لديه قوى أخرى يمتاز بها عن غيره من أنواع الخلق، ويوظفها ضرورة لهذا الهدف أيضًا، وهي قواه الروحية والنفسية والعقلية، وهذه الثلاث هي الدافع اللازم لتفعيل القوى البدنية وزيادة قدرتها على الإنجاز.

إن القوى البدنية ضرورية لصنع الحضارة، لكنها لا تنتج شيئا إذا كانت النفوس محطمة، كما لا تجدي فتيلا إذا كانت العقولة معطلة عن العمل، ولا تؤثّر تأثيرها المرجو إذا لم تمثل الروحُ قوة دافعة تبثّ الحياة في أعطافها.

ولو كان إنتاج الحضارة تابعا لقوة البدن، لكان كثير من الحيوانات المنقرضة والحية أولى من الإنسان بصناعة الحضارة، أو على الأقل أبرع منه في ذلك.

ومن هنا نقول: إن اللازم لإنتاج الحضارة هو وجود كينونة إنسانية مفعَّلة بكل ما تشتمل عليه من قوى وملكات، وبقدر هذا التفعيل وبقدر توازنه المناسب لطبيعة الإنسان يكون شموخ الحضارة أو تهافتها.

ومن جانب آخر، تبدو إنسانية القيم الحضارية من أنها شاملة في أحكامها وارتباطاتها، فتعم الحياة الدينية والمادية والاجتماعية والفردية أو النفسية والفنية للإنسان، وسنجد أن ما يطرحه الإسلام في هذا الجانب يجعل من كل قيمة حاكما في كل هذه المجالات؛ فالتوحيد مثلا قيمة حاكمة في جانب الاعتقاد والشعائر وفي الحياة الفردية والاجتماعية والفنية، وكذلك الحال في قيمة الحرية، وقيمة العدل، والتوازن.

كذلك تتضح إنسانية القيم الحضارية في أن الكائن الوحيد القادر على القيام بوظيفة ترشيح وتمرير بعض النشاطات والأفعال دون بعضها الآخر، تبعا لموافقتها لهذه القيم أو مخالفتها، هو الإنسان فقط، في حين أن شركاءه في هذه الحياة يسيرون وفق أنماط جبلّية لا يتجاوزونها في العادة.

ثم إن صفة الإنسانية يمكن اكتشافها في القيم الحضارية الإسلامية كذلك من خلال مراعاة الشريعة عند التكليف لضعف الإنسان وكونه مرتبطا بعواطفه وقدراته المحدودة؛ فالمشقة تجلب التيسير، كما أن الرخص ليست مطلقة؛ لأنها بهذا تكون ذريعة إلى التحلل من الدين، وكذلك مراعاة الشريعة لمصالح العباد.

إلا أن من أعجب الوجوه التي يمكن أن نكتشف من خلالها إنسانية قيم الحضارة، أنها متجاوزة؛ أعني أن لها امتدادا عميقا يتجاوز ماديات الكون، أو يتسلل بعيدا عن السطوح الظاهرة للعالم المادي، ليمس عالما مثاليا بدأت منه جذور الوجود الإنساني بخصوصياته وبصفاته المشتركة أيضًا؛ ذلك أن "من شأن القيم أنها في الواقع تحيلنا على عالم مثالي، يعمل – بالرغم من المضمون الذي نعطيه لهذا الإيمان – على مفصلة هويتنا مع بُعْد يجاوزنا"[1]. كما أن "القيم تشهد على اعتقادات لا تدل على حال الآراء الموروثة وحسب، بل أيضًا على المقاطع الجانبية للمطالب الروحية المراد إنجازها؛ فهي نسبية على نحو مزدوج: بالإضافة إلى الثقافة، ولكن كذلك أيضًا بالإضافة إلى مطلقات يفترَض أن الثقافة تجسدها على صعيد المحايثة"[2].

5 – متفاوتة الأهمية في ذاتها، متكاملة فيما بينها:

ليست القيم الحضارية، على الرغم من أهميتها جميعا، سواءً؛ بل منها ما هو مهم، ومنها ما هو أهم؛ حسب عمق واتساع عمل القيمة في كل مجال، فمع أن للفنون منزلتها في الارتقاء بالإنسان، فلا شك أن مجال الأخلاق يفوقها أهمية؛ لما فيه من اختيار وحرية إنسانية، في حين أن تقدير الجمال يخضع غالبا لحس فطري، وآخر يكتسبه الإنسان من بيئته، كما أن مجال المادة يتعلق بضرورات بدنية، ومن هنا تبدو القيم ذات الحكم العميق في المجال الأخلاقي أكثر أهمية.

ولا يعني هذا التفاوتُ إمكانيةَ الاستغناء عن القيمة المهمة لصالح القيمة الأهم؛ ذلك أن مجال عمل كل واحدة منها يأتي من زاوية تختلف فيها عن عمل الأخرى؛ وإنما جاء التفاوت – كما سبق – نابعا من عمق تعلقها بالمجالات المختلفة للنشاط الإنساني، واتساع تطبيقاتها.

والمسألة هنا أشبه ما تكون بأعضاء جسم الإنسان؛ فعلى الرغم من تفاوتها في القيمة تفاوتًا أكيدًا، فإن بعضها لازم لاستكمال الصورة الإنسانية، وبعضها الآخر ضروري لبقاء هذا الكائن أصلا.

ومن ناحية تكاملها، فإن بعض القيم الحضارية يتعلق بتصور الإنسان العام للوجود، وبعضها بأقواله التي تعكس معارفه، وبعضها بحياته المادية... إلخ. وواضح أن هذه الأنحاء تتكامل فيما بينها في التعبير عن الإنسان ونظام معيشته، وما دام التكامل يرافق التطبيق الحياتي، فلابد أن تكون القيم، التي هي بمثابة الأصول النظرية للتطبيق، متكاملة أيضًا.

وبعبارة أخرى: فإننا ما دمنا نرى أن حياة الإنسان – وكذا كينونته - لا تنقسم إلا نظريا، ففصل الروح عن البدن حالَ الحياة هو مجرد فكرة نظرية لتوضيح التركيب الإنساني، وفصل الأعمال السيكولوجية عن الأفعال البدنية هي أيضًا افتراض نظري؛ فالكينونة البشرية كل متكامل، ومن هنا يحق لنا أن نقول بأن القيم التي تعتني بتقييم تصرفاته وتحديد مواقفه هي نفسها متكاملة.

وبسبب هذا التكامل يحدث نوع من التفاعل بين القيم الحضارية، ويؤثر بعضها في بعض تأثيرا عميقًا؛ يصل إلى درجة تحديد وجهتها ومداها العام، فـ"من العلاقات المتشابكة بين القيم تتحدد العديد من المعاني والدلالات، التي يمكن أن تجعل معنى القيمة يختلف من حضارة إلى أخرى اختلافا كافيا لجعلها قيمة أخرى. والمعنى المتشابك للقيم والعلاقات بينها يمثل نظام القيم المتكامل، والذي يأخذ تميزه، بل نقول تفرده، من التكوين الخاص بها"[3].

وقد التفت الدكتور حبيب أيضًا إلى أن "القيم السائدة في التاريخ البشري، أو لنقل القيم الإنسانية تظهر في الغالب لدى معظم الشعوب والأمم، والقليل منها لا يظهر إلا لدى شعب أو أمة دون غيرها. ولكن المسألة ليست في ظهور القيمة أو وجودها في اللغة، بل في الوجود الاجتماعي والحياتي للقيمة، وما تمثله من ثقل بين القيم الأخرى، وأيضًا المعنى المراد بها، ودلالة هذا المعنى في التطبيق العملي والسلوكي"[4].

وهذا قد يعني أن القيم الحضارية واحدة تقريبا بين الأمم المختلفة وفي الأزمنة المختلفة، إلا أن بعضها يَضْمُر هنا، ويبرز هناك، في حين يكون بعضها حاكما في حضارة أمة، ويكون هو نفسه محكوما لقيمة أخرى في غيرها، وهكذا. يقول بعض الكتَّاب: "إن الإسلام والمسيحية الهللينية تقرّانِ، رغم الاختلافات الكبيرة، بالمرتبة العليا للألوهية

---

1 - جان بول رزفبر: فلسفة القيم ص 32.

2 - جان بول رزفبر: فلسفة القيم ص 33.

3 - د. رفيق حبيب: في فقه الحضارة العربية الإسلامية حضارة الوسط ص 13.

4 - د. رفيق حبيب: في فقه الحضارة العربية الإسلامية حضارة الوسط ص 13.

والروح"[1]. ومع سيادة الجانب الروحي في كلا الدينين، إلا أنه في المسيحية يدعو إلى التبتل والترهبن والانسحاب من الحياة، وأما الإسلام فيقول: "الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ"[2].

إن "الحضارات – كما يقول هانتنجتون - تختلف عن بعضها البعض بفعل التاريخ واللغة والثقافة والتقاليد، والأكثر أهمية عامل الدين؛ فأصحاب الحضارات المختلفة يعتنقون معتقدات مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، وبين الفرد والجماعة، وبين المواطنين والدولة، وبين الآباء والأبناء، وبين الزوج والزوجة. وذلك بالإضافة إلى رؤى مختلفة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات والحرية والسلطة والمساواة"[3]. إلا أن ذلك الاختلاف راجع في الأساس إلى طبيعة التركيبة التي تظهر عليها القيم، فالدين حاضر في كل الحضارات بشكل أو بآخر، وكذا المادة، والفن، والفرق بين حضارة وأخرى في هذا هو مدى حضور كل عنصر منها، والحجم الذي يشغله في الصورة العامة للحضارة، ومدى قدرة هذا العنصر أو ذاك على تفعيل العناصر الأخرى والانفعال بها.

على كل حال، فقد ظهر فيما مضى أن القيم الحضارية تتناول جوانب متعددة من الحياة الإنسانية وما يحيط بها ويتعلق بمسارها الحياتي، ومن هذا الباب جاء تعدد القيم؛ إذ تبع تعددَ المتعلَّقات تعددٌ للمتعلِّقات؛ وذلك لأن قيمة واحدة ليس بإمكانها أن تقيس كل شيء من كل وجه.

وظاهر أن سبب هذا التنوع في القيم هو تنوع الملكات الإنسانية، وتعدد صور علاقة الإنسان بالكون، فهو من ناحية محكوم بقهر الله لعباده، وقيوميته على كونه، ومن ناحية أخرى هو نافع ومنتفع ببعض الموجودات المشاركة له في الحياة، فهو خادم ومخدوم، فالإنسان يخدم النبات والحيوان، ويخدمانه، ويخدم بني نوعه ويخدمونه، وقد يستخدم الإنسان شيئا لا يخدمه هو، وغالبا ما يكون السبب في هذه الحال الأخيرة، هو عجز الإنسان عن تقديم منفعة ما لهذا الخادم، كما هو حال الشمس والقمر والنجوم والرياح والبحار.

وقد عد الألماني شبرانجر للقيمة عمومًا ستة أبعاد، هي: "القيمة النظرية: وتتميز باهتمام موجَّه للكشف عن الحقيقة، وبمنهج علمي نقدي... القيمة الجمالية: ويسعى رجل الجمال وراء الشكل والتناسق، فيحكم على كل خبرة من حيث التناظر والتناسب... القيمة الاقتصادية: وتتمثل في الاهتمام بالنتائج العملية والمنافع المرتقبة. القيمة الدينية: والوحدة هي غاية رجل الدين؛ فيسعى إلى فهم الكون من حيث هو وحدة وكل متصل، وإلى أن يصل ما بين نفسه وبين هذا الكل الشامل. القيمة الاجتماعية: ... الإنسان الاجتماعي يقدّر الناس بوصفهم غايات، ويرى في الحب الصورة الوحيدة الملائمة للصلات المتعددة بين الناس. القيمة السياسية: وهي السعي إلى القوة والسلطان، ولا تقتصر على السياسة، بل تعدوها إلى سائر المجالات"[4].

وقسم بعض المفكرين العرب القيم إلى: قيم حيوية، وقيم عاطفية، وقيم اجتماعية، واقتصادية، وقيمة الحقيقة، والخير، وقيمة الجمال[5].

إلا أن هذا التوسع يكاد يكون استقصاء نابعًا من تعدد الاهتمام بمبحث القيم، بحيث دُرس من زاوية اقتصادية مرة، ومن زاوية أخلاقية مرة، وجمالية، وتربوية، وهكذا، وهو أمر من المهم أن نشير إليه هنا، لكن من الصعب أن نفصّل الحديث عنه في هذا الحيز المخصَّص لدراسة القيم الحضارية على وجه التحديد.

المبحث الثالث

موقع القيم في البنيان الحضاري

لو شئنا أن نقسم الحضارات حسب علاقتها بالقيم العليا، فليس في مكنتنا أن نعتبر بعضها حضارات ذات قيم وبعضها الآخر بلا قيم؛ لأن الحالة الثانية غير ممكنة في الواقع؛ إذ لابد للفعل الإنساني المضطرد من جانب نظري مستكنّ في نفس الفاعل، تمثله مجموعة المبادئ التي يعتقدها وتنطوي عليها كينونته، ويرى أنها أسس كونية في علاقته بالأشياء وعلاقة الأشياء بعضها ببعض. ولا يخلو فاعل بشريّ من هذه الدوافع، إلا أن يكون مجنونًا؛ أو فاقدا السيطرة على عقله؛ تلك الملكة التي تضبط دوافع الفعل الإنساني.

ولا ينفي وجودَ هذا الأصل النظري أن الإنسان قد يخالف المبادئ التي يعتقدها في بعض الأحيان؛ إذ إن المعوَّل عليه في هذا الباب هو أفعاله المضطردة، لا فعله الطارئ أو النادر، كما أن مخالفته هذه وعودته عن المخالفة (سواء سمينا ذلك توبة أو نكوصًا؛ حسب نوع الفعل الذي يعود فيه)، قد يستندان إلى مبدأ آخر يؤمن به؛ كالحرية المطلقة مثلا، وقد تؤكد العودةُ عن المخالفة أبوةَ المبدأ الذي يعود إليه كأصل لا تنفيه هذه المخالفات.

ولا يعني هذا أيضًا أن الحيوان – ويأتي فعله عادة على وتيرة واحدة – يستند في فعله إلى أصول نظرية كتلك التي يتمتع بها الإنسان؛ إذ إن الأخير منفرد بخاصية صناعة الحضارة بمعناها الذي نعالجه في هذا البحث؛ بسبب العقل والروح، وكذلك هذه القيم التي يتعلمها ويكتشفها خلال رحلته فوق الأرض. في حين أن هذا الجانب فطري تمامًا في الحيوان، فالإنسان كائن تاريخي عامل يمثل الزمنُ بالنسبة له فرصة للتطور، في مقابل الحيوان أو الكائن اللاتاريخي، والذي لا يمنحه الزمان فسحة من الوقت، طالت أو قصرت، ليتطور بحياته[6].

والمسلم يعتقد أن الكون يملك درجة من الحياة ومستوى من الوعي يعرف بهما ربه، ولا يُستثنَى من ذلك إلا بعض الناس الذين يعيشون ضحايا لشكوكهم حتى الموت المرير. ويجد المسلم شواهد ذلك في القرآن، وبالتحديد في مثل قوله (تعالى): **{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسجُدُ لَه مَن فِى السَّمَوَاتِ وَ مَن فِى الأرضِ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَ كثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيهِ العَذَابُ وَ مَن يُّهِنِ اللهُ فَمَا لَه مِن مُكرِمٍ وَإِنَّ اللهَ يَفعَلُ مَا يَشَاءُ}** (سورة الحج: 18). لكننا نعتقد أيضًا أن

---

1 - داريوش شايغان: أوهام الهوية ص 8، ترجمة: محمد علي مقلّد، الطبعة الأولى، دار الساقي – بيروت 1993م.

2 - رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب منه، 529/2، جامع الترمذي مع العرف الشذي للشيخ أنور شاه الكشميري، مكتبة رحمانية، لاهور، باكستان. وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ص 582، رقم الحديث 4032، الطبعة الأولى، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض- 1420هـ/1999م.

3 - صمويل بي. هانتنجتون: الإسلام والغرب آفاق الصدام ص 11، ترجمة: مجدي شرشر، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي – القاهرة 1415هـ/ 1995م.

4 - د. صلاح قنصوه: نظرية القيمة في الفكر المعاصر ص 76 – 77، دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة 1981م.

5 - تيسير شيخ الأرض: إرادة الحضارة ص 232 – 233.

6 - ومع هذا فهناك من يرى التفوق في خصلة – ولو كانت حيوانية – والبروز فيها، خيرا من النقصان؛ فقد قال بدوي لابنه: "يابني، كن سبعا خالسًا، أو ذئبا خانسا، أو كلبا حارسا، وإياك أن تكون إنسانا ناقصا" الوزير الكاتب أبو سعد منصور بن الحسين الآبي: من نثر الدر 4/ 229.

الإنسان العارف بهذه الحقيقة هو الكائن الوحيد الذي يمكنه توظيف هذه المعرفة، بحيث تنعكس في واقع الحياة عملا ملموسًا قابلا للتجدد، اعتمادًا على الملكات الخاصة لهذا الكائن المتميز.

ومهما يكن، فإن الحضارات قد تختلف في ترتيب القيم وإخضاع بعضها لبعض – كما سلف - لكنها لا تختلف في منظومة القيم وجودًا وعدمًا؛ وهذا يعني بوضوح أن قيم الحضارة ذات موقع مركزي من بنيان الحضارة نفسه.

لكن قد تكون الفكرة أو المعنى مشتركا بين الحضارات جميعا، دون أن تكون لهما أهمية خاصة بين مكوناتها، فهل للقيم أهمية يمكن أن نكتشفها من غير هذا الجانب؟

والإجابة باختصار: نعم؛ لكن تعليل ذلك يحتاج إلى تفصيل أورده فيما يلي:

1 - القيم أسبق زمنا من الحضارة:

يتقدم وجود القيم الحضارية من الناحية الزمنية وجودَ الحضارة نفسها، وقد تبقى القيم قبل البروز الفعلي للحضارة زمنا حتى تختمر، ثم تأخذ فرصتها عندما تكون مؤهلة لإنتاج الحضارة، فتنتجها وفقا لعوامل تفاعل معقدة مع معطيات البيئة والواقع البشري.

وهذا يعني أن المجتمعات الإنسانية عموما إما متحضرة بالفعل وفي اللحظة الحالية، وإما أنها تملك قابلية التحضر، ولكن الذي يحول بين بعض الأمم وبين استكمال هذه الدورة، هو عدم وصول القيم فيها إلى درجة من المتانة والقوة بحيث تصلح أسسًا لقيام نشاط الحياة الإنسانية فوقها.

والسبق الزمني لقيم الحضارة على الحضارة نفسها له أهميته الخاصة في تأكيد مكانة القيم؛ وذلك من جهة أن خمول القيم يعني الركود، وأما فاعليتها، وقدرتها على التأثير، فتعني قيام الحضارة؛ فاختمار القيم شرط لقيام الحضارة.

2 – القيم تبقى بعد اختفاء الحضارة:

قد تختفي الحضارة نفسها دون أن تختفي كل قيمها التي قامت عليها؛ ودليل ذلك أن كثيرا من الشعوب التي صنعت الحضارة قديما قد احتفظت ببعض خصائصها على مر التاريخ، على الرغم من تقلبها في أطوار مختلفة من التحضر والتخلف.

وهذا الجانب كذلك يشي بالأهمية البالغة للقيم في منظومة الحضارة؛ إذ تظل الحضارة قائمة ما دامت قيمها صالحة للاستمرار في دفعها إلى الأمام، أو على الأقل مساعدتها في الاحتفاظ بمواقعها، فإذا اضمحلت هذه القيم، تلا ذلك السقوط المفاجئ أو التدريجي حسب القيمة التي انحطت، ودرجة الانحطاط التي لحقتها.

وهاتان النقطتان (أعني التقدم الزمني للقيم على الحضارة وبقاءها بعدها) تكشفان عن قانون التحضر والتخلف؛ إذ لا يتم التقدم وفقا للدورة التي قال بها ابن خلدون للدولة، وأنها كالإنسان تمر بمرحلة طفولة، ثم تصل إلى عنفوان قوتها في مرحلة الشباب، ثم يدخل الضعف عليها، حتى تزول، أو ما عبر عنه بأن "الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"[1]. بل إن بقاء الحضارة مرتهن لشروط خارجية وأخرى داخلية، وأساس ذلك هو قيم هذه الحضارة وقدرتها المزدوجة على الإنجاز ومقاومة عوامل التعويق، سواء جاءت من قبل الصعوبات الطبيعية، أو من جهة المجتمعات الأخرى المنافسة.

3 – استبعاد القيم = استبعاد الحضارة:

عناصر كثيرة من بنيان الحضارة الإنسانية يمكن استبعادها منها، دون أن يعني ذلك إلغاء الحضارة نفسها؛ إذ إن كثيرًا من هذه العناصر تنشأ أو تكتمل في مراحل تالية أصلا، وهذا لا ينطبق على قيم الحضارة التي لا يمكن استبعادها في أي مرحلة؛ لأن الانطلاق والدافع يأتي في الحقيقة من داخل هذه القيم، كما أنها الأساس النظري لكل ما يأتيه أصحاب الحضارة أو يتركونه.

إن "القيم ما هي إلا انعكاس للأسلوب الذي يفكر الأشخاص به في ثقافة معينة، وفي فترة زمنية معينة. كما أنها هي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير. وقد تتجاوز الأهدافَ المباشرة للسلوك، إلى تحديد الغايات المثلى للسلوك، إلى تحديد الغايات المثلى في الحياة"[2]. وهي في موقعها هذا تمثل الأصول النظرية للعمل.

وإذا كنا لا نشك في أن غياب القيم يعني غياب الحضارة، بل انحطاط الحياة الإنسانية إلى ما هو أدنى من حياة الحيوان، فإن غياب قيمة رئيسة أو أكثر يؤدي إلى ألوان مدمرة من الخلل والاضطراب.

ولعلنا نبصر آثار ذلك جلية فيما أصاب العالم من مشكلات كبرى في هذا العصر، حيث غاب الرشاد عن الحضارة الحديثة، وأوغلت وراء الوفرة المادية تطلبها بكل وسيلة، لا يزعها عن ذلك وازع؛ حتى جرى ما جرى مما يحتاج إصلاحه إلى بذل جهود هائلة جدا، دون أن نكون متأكدين من النجاح في الوصول إلى المطلوب تماما.

لقد عجزت الحضارة الحديثة عن الحفاظ على مصالحها مع مراعاة القيم الأساسية في وقت واحد[3]، وهذا هو السبب في الأعطاب الكبيرة التي تحدث في العالم الآن؛ إذ إنه هو المناخ الذي تُولَد فيه مثل هذه الأزمات والمشكلات العالمية الخطيرة؛ خاصة مع تغول القدرات المادية للإنسان المعاصر.

لقد كانت المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الكبيرة في الماضي محدودة الدائرة، فمهما كبرت هذه المشكلات تظل أجزاءٌ واسعة من العالم بمنأى عن تأثيرها وبمنجاة من خطرها، كما هو الحال في تفشي الأمراض على نطاق واسع، إلى أن جاء العصر الحديث بمشكلات وأزمات لا تستثني من تأثيرها أحيانًا قريبًا ولا بعيدًا، ولا متقدمًا ولا ناميًا. ومن ذلك:

- مشكلة الانحباس الحراري الذي أصاب الأرض كلها من جراء الاستهلاك غير المنضبط للثروات، والتصنيع المرتبط بالإنتاج وزيادته، دون متابعة لما قد ينتج عن عملية التصنيع هذه من سلبيات تضؤل أمامها كل زيادة في الإنتاج.
- وكذلك الأزمة المالية العالمية الأخيرة التي أفقدت العالم رشده.

---

1 - عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر 1/ 213 – 215، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت 1421هـ/ 2001م.

2 - د. عبد اللطيف محمد خليفة: ارتقاء القيم ص 14، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، العدد 160، أبريل 1992م.

3 - راجع بعض التفصيل لهذا في مقال: "القيم والمصالح في أزماتنا العالمية" في مدونة المؤلف http://drnbel.blogspot.com/.

والإنسان يمتاز عن شركائه في عالم الأرض بما يراعيه ويحفظه من قيم تأخذ موقع الرمز والكلّيّ الذي يُفسِّر كل شيء في ضوئه.

والارتباط بين الإنسان والقيم ليس مجرد حِلية معيشية تزين النوع الإنساني، بل هي علاقة عضوية تتهدد حياةُ الإنسان مع انقطاعها، وحين يوغل الإنسان في معاكسة القيم تتراكم فوق حياته عوامل الفناء، حتى يصير خبرًا يُتلَى.

ولأجل هذا تبدو القيم بالنسبة للحياة الإنسانية بمنزلة الخيوط التي تكوّن النسيج المعنوي للإنسان ونظام حياته كلها، دون أن تكون هذه القيم بمنأى عن المادة والجسد والتصرفات الإنسانية الملائمة لهما.

ولا يعني ما سبق أن إنسان عصرنا وحده هو الذي لم يراع القيم في جملتها، بل فعلت هذا أجيال بشرية كثيرة قبله، لكن الجديد هو أن الوسائل التي يمتلكها الإنسان المعاصر صارت متعاظمة بشكل لا يقارن معه ما كان يملكه الإنسان القديم منها، ومن هنا فإنه يجد ما يعينه على الإيغال في تصرفات تنحدر به نحو نهاية مأساوية.

يُضاف إلى هذا أن الإنسان الحديث والمعاصر قد يمَثل بين يديه أكبر عدد من التجارب الناجحة والفاشلة في العيش فوق الأرض وصناعة الحضارة وإنتاج الثقافة، ومن هنا كان عدم تنبهه إلى عوامل النجاح والفشل العميقة في هذه التجارب، أو تنبه بعض المفكرين والعلماء وحدهم إلى هذا، دون أن يكون لذلك مردود واقعي حقيقي - كان هذا دليلا على أن الإنسان يتحرك مسوقًا بالرغبة لا بالإدراك، وأن القيم لم تعد موضع اهتمامه، وأن ادعاء عقلانية الحضارة القائمة وتجريبيتها لا يتجاوز الأقوال والادعاءات المجردة.

لقد وُضِع الدين والمصالح المادية في العقلية الغربية الناهضة كطرفين متقابلين، وغذت هذا أمور أهمها:

- النجاحات المادية المتتالية والمتعاظمة التي كانت تحققها العقلية والآلة الأوروبية منذ بدأت صدمة الحداثة الهائلة.

- عجز الكنيسة وقيمها عن الدفاع عن نفسها في وجه السيل الهادر الذي اقترن بالحداثة الأوروبية، حتى إنها؛ أي الكنيسة اضطرت في النهاية إلى الاستسلام والتأقلم مع الوضع الجديد.

- عدم وجود بديل حضاري بارز في الواقع المعيش يجمع بين القيم والمصالح، وإن امتلك الإسلام هذا، فإن المسلمين قد تخلفوا عنه كثيرًا.

وبعد الخلل الكبير الذي وقع في حياتنا جراء الأزمات الكبرى التي نعيشها بيئيًا واقتصاديًا، صرنا مضطرين إلى تعديل المسار، وكان يمكننا من قبل أن نرشّد المسيرة الإنسانية بإدراك الدروس العميقة في التجارب البشرية السابقة منذ القدم وحتى وقتنا هذا، وكلها تؤكد ضرورة رعاية القيم السوية عند البحث عن المصلحة، وأن المنفعة قد تتحقق بدون قيم رفيعة، ولكن الأزمات ستتراكم نتيجة لهذا حتى تفاجئنا بطامة كبرى كهذه التي نعيشها الآن.

لقد صرنا مع الأزمات التي تصيبنا مضطرين إلى الإصلاح والتغيير، أو العودة إلى الرشد، وفرق كبير بين هذا الاضطرار وبين مراعاة الرشد منذ البداية، كالفرق بين من يتقي المرض منذ البداية وبين من يتركه حتى يتمكن من بدنه، ثم يبحث له عن دواء.

ومن المفروض بعد هذا أن يتخذ الإنسان إزاء الثمرات غير الطيبة لأفعاله إجراءات تصحيحية حقيقية، تتجاوز الاهتمام بالسطح إلى رعاية اللب، وتتخطى الإجراءات العاجلة والمؤقتة إلى الخطط ذات الثوابت المدروسة، وكل هذا قائم على مراعاة القيم الرئيسة والأساسية لكل تجمع بشري قوي.

4 – تأثير القيم يشمل كل نشاطات الحضارة:

يبدو تأثير قيم حضارة ما في كل زاوية من زواياها، وفي كل ناحية ينشط فيها صُنَّاعها، فالثقافة والفنون والآداب والأخلاق ومناهج التفكير والتفاعل الاجتماعي، كلها تمثل صفحات لتجلي القيم الحضارية للأمة التي وقفت خلف هذه الحضارة بعواطفها وعقولها وسواعدها.

ولعل الدراسات التي تحاول معرفة طبائع الأمم وقيمها من إنتاجها الفكري ومخلفاتها المادية وسائر ما يتعلق بأنظمة حياتها، لعلها انطلقت من هذا الاتساع لتأثير القيم في الحضارة؛ وذلك "أن إدراك كنه حضارة من الحضارات، أو مرحلة حضارية، لا يحصل بفهم مظهر من مظاهرها فحسب، مهما يكن لهذا المظهر من أهمية أو أثر، بل بالنفاذ إلى مفاهيمها الأساسية للإنسان وجوهره وأصله وعلاقته بالطبيعة وبما وراء الطبيعة، وللحقيقة وسبيل الوصول إليها، وللخير ومصدره ووجوهه ومراتبه"[1]. وهذا ما يتأسس على القيم العامة للحضارة، ومن هنا تبدو القيم بمثابة المفاتيح التي يمكن من خلال دراستها إدراك كنه حضارة أو أخرى.

ولعل هذا هو ما دفع بعض المعاصرين إلى القول: "إنما الحضارة قيم قبل كل شيء، ثم مظاهر تنظيمية ومادية بعد ذلك. والمسلمون الأوائل الذين فتحوا قلوب الناس للإسلام، لم يكونوا يملكون من مظاهر الحياة المادية إلا النزر اليسير، ولكنهم كانوا يملكون لب الحضارة الحقيقي: رفعة النفس، نظافة المشاعر، العدل، الحب، التواضع لله، سمو المبادئ، نبل الأخلاق، التوجه الجاد للهدف النبيل، انضباط الحركة، النظام. ثم جاءت المظاهر المادية للحضارة مع استقرار الأمة وتمكنها في الأرض"[2].

إن متانة العلاقة بين الحضارة والقيم، تتيح فرصة لتبادل التأثير بين القيم وما تنتجه في الحياة من آثار ثقافية وعلمية ومادية وفنية، وهو ما يمكن أن نسميه دعم الباطن بالظاهر ودعم الظاهر بالباطن، أو تبادل عوامل القوة بين الإيمان والعمل، فيقوّي كل منهما الآخر؛ إذ إن الممارسة الحسية لأعمال ترمز إلى الإيمان وتعبر عنه لا يقتصر نفعه على دعم الصلات بين أفراد الجماعة المؤمنة بما يحققه من التقريب بين صورهم الظاهرة، ولكن يتجاوز ذلك إلى دعم الإيمان نفسه، كما يدعم الإيمان القويُّ العملَ. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "ليست المعاني الاعتبارية المعنوية غنية عن التقمص في الصور المحسوسة؛ ليلتئم من التعقل ومن المشاهدة مجموع يشبه الهيكل الحي في اشتماله على روح وجثمان"[3].

الحضارة نتاج إنساني قد يتكئ على الدين، وقد يتحرر منه بدرجة أو أخرى، وقد تكون القيم والمنطلقات التي تقوم عليها الحضارة صحيحة تمامًا؛ ولكن لأن صانع الحضارة يتحرك بين متغيرات في واقعه النفسي؛ أو في داخله، ومن حوله؛ أو في واقعه الاجتماعي، فلابد أن ننتظر منه نتيجة تخضع لمعادلة الصحة والبطلان؛ أي أنه حتى مع احترام الحضارة للدين فإن هذا لا يعني عصمتها الدائمة؛ لأنها صناعة بشرية لحياة لا يمكن أن تبقى على وتيرة واحدة.

---

1 - قسطنطين زريق: في معركة الحضارة ص 137.

2 - محمد قطب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهج حياة ص 109، دار الشروق – القاهرة 1415هـ/ 1995م.

3 - محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص 115، الشركة التونسية للتوزيع والدار العربية للكتاب، تونس 1979م.